

الإحالات الدينية للعنوان في

قصيدة "غلواء" لـإلياس أبي شبكت

- مقارنة سيميائية -

أ. يوسف العايب

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى الاستفادة من إجراءات المنهج السيميائي في مجال تحليل النصوص الأدبية ونقدها، وتذوقها، محاولاً تسليط الضوء على العنوان في قصيدة "غلواء" لـإلياس أبي شبكت، وفك شفراته بغية التوصل إلى فهم العلاقة التي تربطه بالنص الشعري، ومعرفة المرجعيات التي تؤسس له.

Resumé:

Cet article a pour sujet l'analyse sémiotique de l'intitulé dans le poème les galoua d ilias abi chabaka. C' est une analyse qui met en œuvre différents notions et concepts développés dans ce domaine de l'analyse littéraire afin d'éclaircir la nature de la relation qui s'établit entre un élément paratextuel essentiel, à savoir l'intitulé et le texte . ce qui va nous permettre de dégager les différents codes qui régissent un tel rapport.

إنّ العتبة الأولى التي تواجه الدارس أثناء ولوجه في عالم النص هي العنوان ..هذا الأخير يغري الباحث ويستميله إلى تتبع دلالاته ومحاولة فكّ شفراته ورموز واستنطاقها.

والعنوان هو من بين مجموع الملفوظات التي تحيط بالنص والتي أطلق عليها "جينيت" لفظ النص المصاحب⁽¹⁾.

و هو " ضرورة كتابية، و إنتاجية الدلالية يؤسس سياقاً دلالياً يهيئ المستقبل لتلقي العمل"⁽²⁾.

وتحليلنا القراءة اللغوية لمدلولات لفظية "عنوان" إلى المعنى الاصطلاحي، وتتمثل في: "الظهور، الخروج، القصد، الإرادة، الوسم"⁽³⁾ كما تشير أيضاً إلى معاني "الاعتراض، الاستدلال، الأثر، التعريض"⁽⁴⁾.

و قد حظي العنوان في الدراسات السيميائية الحديثة باهتمام كبير من طرف الباحثين، وتبدو تلك الأهمية في كون أنّ النص الأدبي عبارة عن شظايا موزعة يللمل أجزاءها العنوان، وأنّ لهذا الأخير دوراً بارزاً في تحديد النص الأدبي من خلال الكشف عن جوانب أساسية أو مجموعة من الدلالات المركزية له " فخلف العنوان ثمة منظومات من الإحالات"⁽⁵⁾.

و هو في حدّ ذاته نص وباقي المقاطع ما هي إلا تعريفات نصيّة تنبع من العنوان الأمر ، والعلاقة بين هذا الدفق التّفريعي والعنوان بوصفّة متخيلاً شعرياً أو سردياً هي ليست علاقةً اعتباطيّة ، إنّها علاقةً انتماء دلّالي وعلى هذا الأساس فإنّ الدارس لا يستطيع سبر أغوار النص والخوض فيه إلا إذا أمكن له فكّ رمزيّة العنوان الذي يشوّش أفكار الملتقى ويلقي بها في فضاء التّخيل ، ويستفّر قدراته الثقافيّة ، والفكريّة في مواجهته ، ويرمي بها في عتبات التّأويل للنص .

ومن هنا يبرز دور المؤلّف في اختيار عنوان نصّه وطريقة تأسيسه له على اعتبار أنّ هذا الأخير هو " بمثابة علامة لسانیّة تشير إلى محتوى النص العام" (6)

ويرى صلاح فضل أنّ " الشروع في تحليل العنوان يصبح أساسياً عندما يتعلّق الأمر باعتباره عنصراً بنيوياً يقوم بوظيفة جماليّة محدّدة مع النص أو في مواجهته أحيانا ... كما يمكن أن يقوم العنوان بدور الرمز الاستعاري المكثف لدلالات النص مثل " شجر الليل " أو " مقتل القمر " أو يشير إلى أساطير موظّفة في النص مثل ((عوليس))... (7)

وقد أشار الكثير من الدارسين والمشتغلين في حقل السيميّا إلى العنوان ووظائفه ، وقد حصر بعضهم تلك الوظائف في " الإغراء والإيحاء والوصف والتعيين" (8)

وبناء على ما تقدّم سنحاول فيما يلي الولوج في فضاء القصيدة - موضوع الدراسة - لاستنطاق مجموع العناوين التي اشتملت عليها وتخطيها على اعتبار أنّها عتبات يجب المرور عليها.

و سنستهل دراستنا بعنوان القصيدة ثم نتطرق فيما بعد إلى العناوين الفرعيّة أو الداخليّة:

أ/ عنوان القصيدة: (غلواء):

في لسان العرب لابن منظور ورد في مادة (غلا) معاً منها: " ...غلا في الدّين والأمر يغلو غلوّاً: جاوز حدّه، وقال بعضهم: غلوت في الأمر غلوّاً: جاوزت فيه الحدّ وأفرطت فيه، والغلو في الدّين أي التشدّد فيه ومجاوزة الحدّ، وقيل معناه: البحث عن بواطن الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها.

و يقال: غلا السهم: ارتفع في ذهابه و جاوز المدى. و غلا النبت: ارتفع و عظم التّف" (9)

وهذه المعاني التي عثرنا عليها في لسان العرب يمكن حصرها في: (مجاوزة الحدّ، و التشدّد، و الإفراط في الأمر، و الارتفاع و العظمت، وكذا التعمق في الكشف و البحث).

و هي بدورها تعطي صورة واضحة عن المعاني والدلالات العميقة التي شحنت بها إلياس أبو شبكتة عنوان قصيدته مما يبرز مرة أخرى رومانسيّة إلياس أبي شبكتة و

وجدانيته المفرطة من خلال غوصه الشديد في أعماق نفسه ليكشف مكنوناتها و مكبوتاتها، وهو ما من شأنه أن يبرز العلاقة الوطيدة بين الشاعر وقصيدته أو لنقل بين الشاعر و عنوان قصيدته وهو في النهاية ما يكسب العنوان صفة الذاتية المفرطة.

وإذا انطلقنا من مقولة أن العنوان مرآة عاكسة للنص، وسألنا بها فإننا نجد تفسيراً لتلك الصورة القاتمة والمبالغ فيه للوجود الإنساني ككل وقد مثلته غلواء في الصراع القوي بين ثنائيات كثيرة هي الخير والشر، الفضيلة الرذيلة، الوفاء والخيانة، الجسد والروح...إلخ.

يضاف إلى كل ذلك ما اعتمل في نفس الشاعر من عواطف نراها مبالغ فيها تعكس الحقد الشديد على الناس، والصورة الباهتة التي رسمها الشاعر لأفراد بيئته وأبرز ما يميزها الجشع، الطمع، الغدر...إلخ.

كما صور الشاعر اضطراباته النفسية وتقلباتها بين الاتجاهين: الخير والشر وكذا شعوره بالحيرة والقلق والكآبة والتمرد والسخط، وكل ذلك رسمه الشاعر في لوحات فنية تحمل في طياتها أوج الصراع النفسي، صراع الإنسان الحائر في مصيره الواعي بمشكلاته وجوده، وهو صراع نفسي فيه شطط ومبالغة و غلو.

ولما كانت غلواء من الغلو والمبالغة في الأمر والشيء، وتجاوز الحد والإفراط فيه فإننا ومن خلال وقوفنا على مضمون هذه القصيدة يمكن أن نخلص إلى وجهتي نظر شخصيتين حاولنا أن نؤول من خلالهما اختيار العنوان " غلواء " للقصيدة.

- أولهما قد يكون ذلك التصور المثالي المبالغ فيه والموغل في العقيدة المسيحية إيفالا كبيراً والذي تجلى في إحساس الشاعر بعدم واقعيتها كونها انحرفت كثيراً إلى الروح على حساب المادة والجسد في حين أن الإنسان روح وجسد.

- أما وجهة النظر الثانية فننطلق فيها من حياة الشاعر نفسه وانعكاس جزء منها على غلواء المرأة، فقد عاش أبو شبكت حياة فجور وعهر عرف فيها نساء كثيرات⁽¹⁰⁾ إذ كلما عزم على التوبة سحرته إحداهن فانساق وراءها وهو لا يجد حرجاً في الاعتراف بعلاقاته مع تلك النسوة لغلواء مبرراً فعله بأنه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، وها هو يقول عن إحداهن " هذه الفتاة كانت تسليتي الإلهية خلال إقامتي في الجبل في عجلتون، لا تلوموني على هذا لأن الشعراء يجب أن يمروا دائماً بمراحل حب ولو ضبابية"⁽¹⁰⁾.

هذا الميل الشديد إلى الفجور عند الشاعر قابله نزوع كبير إلى الطهر والعفاف والفضيلة عند غلواء التي غالت كثيراً وبالغت في تصوفها إلى درجة كبيرة، فلجأت إلى الطبيعة لتحررها من آلامها وآثامها ومن اعتقادها الباطل الذي ظل يساورها، ويشعرها بالذنب كلما تذكرت رؤياها التي استيقظت فيها على جريمة زنا لم ترتكبها ولم تكن طرفاً فيها، فكانت تمد يدها في كل حين راجية من الله أن

يتوب عليها، و يخلصها من حالة الشعور بالذنب هذه التي تعيشها، و هذا كله يشير بوضوح إلى المغالاة في الطهر و العفاف و حياة الفضيلة التي تعيشها غلواء. كما أن شعور غلواء بأثر لم ترتكبه، و انتقال أثره إلى نفسها يدل على قمت الترابط الروحي بين الحبيبين الذي يجعل أحدهما يسقط ما في الآخر على نفسه أو العكس، و هي مرتبة من مراتب الصوفية الكبرى، عندها يتحد الحبيبان و يصبحان جسدا واحدا، فإذا الشاعر هو غلواء، وإذا غلواء هي الشاعر.

ثم إن لفظة (غلواء) في الأصل هي تحويل و تحويل لاسم الفتاة التي أحبها الشاعر و تزوجها (أولغا) و هذا مرده إما التستر عن اسم زوجته و عدم التصريح به، أو أن مرده إلى أمر آخر له صلة بترائنا، فقد عاد بنا الشاعر كما يبدو إلى أصل البشرية، إلى أبونا آدم و حواء حين جعل عنوان قصيدته (غلواء) على وزن (فعلاء) الذي يتفق في الوزن والموسيقى مع اسم أم البشرية " حواء " وقد يكون ذلك إشارة منه إلى خطيئة آدم و حواء وإسناد الأمر إلى القارئ لكشف العلاقة بين الخطيئتين.

ويلاحظ القارئ لهذا العنوان وروده في لفظة مفردة " غلواء " ميزته الاختصار الشديد ورغم ذلك نجد أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالقصيدة ويتصل اتصالا عضويا بها، حيث يهيئ للقارئ السبيل للمقروئية والولوج في فضاء القصيدة لأنه يكشف عما أراد الشاعر أن يصغه لأولئك الثواقين لمعرفة مضمون القصيدة الشعرية التي هو بصدد التعريف بها " وأي عنوان لأي كتاب يكون عبارة صغيرة تعكس عادة كل عالم النص المعقد الشاسع الأطراف"⁽¹¹⁾.

ب/ العناوين الفرعية (الثانوية):

القارئ لقصيدة غلواء والمتصفح لما اشتملت عليه من عناوين فرعية يلحظ وبصورة واضحة تأثر الشاعر إلياس أبي شبكت بالكتاب المقدس.

وقد علمنا أنه صرف الكثير من وقته في مطالعته ووقف فيه على الكثير من الرموز التي وردت في أقوال الأنبياء.

لذلك- فلا غرو إذا - أن نجد إلياس أبا شبكت قد قسم قصيدته المطولة إلى أقسام سماها عهودا على منوال الكتاب المقدس المقسم إلى عهدين: عهد قديم وعهد جديد.

1- العهد الأول، المريضة.

عنون الشاعر العهد الأول من قصيدته " المريضة " والكلمة في حد ذاتها " المريضة " ليس فيها غموض أو لبس ولا يستعصي مدلولها على أحد. لا يحتاج الدارس إلى البحث أو التنقيب في حضريات هذا اللفظ لبساطته وسطحيته، والذي يسترعي الانتباه فقط عند سماع كلمة " المرض " أو الموسومين به هو التساؤل عن طبيعة هذا المرض وعن مسبباته وطرق الخلاص منه والشفاء.

إنَّ المرض قد يكون نفسياً وقد يكون حسيّاً وقد يكون نفسياً جسدياً في آن واحد، ولأنَّ المريض يطلب الدَّواءَ وينتظر الشفاء فكان إذاً على مريضته أبي شبكة أن تنحو نفس المنحى.

وبالعودة إلى عقيدة الشاعر وولعه بالكتاب المقدس يمكننا الحكم على أنَّ هذا العنوان منتقى ليساير جوَّ القصيدة الرُّوحي المضمع بالإيمان والصَّوفية. لأنَّ محتوى هذا العهد يشير إلى الانتظار على اعتبار أنَّ المريض ينتظر الشفاء، وهو يتوافق إلى حدٍّ ما مع إنجيل " متى " لأنَّ يسوع من خلاله يبدو: المسيح المنتظر⁽¹²⁾. وانطلاقاً من عنصر الانتظار ندرِك الشبه الموجود بين إنجيل " متى " وبين عهد غلواء الأول المعنون بالمريضته.

ويتفرع هذا العهد بدوره إلى فرعين هما :

أ/ القصص:

يبدو من اختيار الشاعر للفرع الأول من هذا العهد عنوان " القصّة " ادراكه المجموع التساؤلات التي قد تراود ذهن القارئ والذي ربما قد أعجب نفسه في البحث عن طبيعته مرض غلواء، وما استقر على رأي فيه، فكأننا بالشاعر يقول: هاكم الحكايات . هاكم نوع المرض، وإليك طبيعته حتى يمحي في ذهن القارئ بعض الغموض الذي يحيط بمرض " غلواء ".

ب/ الرؤيا:

الرؤيا في دلالتها اللغوية تعني: " ما يرى في النوم ، وجمعها رؤى "⁽¹³⁾. وعنوان " الرؤيا " هو الفرع الثاني من عنوان العهد الأول، ونراه تكملة للفرع الأول وإيضاحاً له. هو مضمون القصّة أو هو الفكرة الجوهرية التي قامت عليها القصّة، وبعبارة أخرى بداية السرد لأحداث القصّة التي تجيب بدورها عن مسّيات مرض غلواء وطبيعته. الرؤيا هي مسبّب ونتيجة في نفس الوقت، مسبّب للمرض من ناحية ومطوّر لأحداث القصّة من ناحية أخرى، فلولاً حدوث تلك الرؤيا لما استبدّ بغلواء المرض، ولما وصلت إلى ما وصلت إليه من شقاء ووهم وتأنيب للضمير، بل يمكن القول أنَّ " الرؤيا " منعطف هام في حياة غلواء بصفة خاصة.

وهذا العنوان يوحي بالبحث والتأمل والنظر، يحلّق بناءً في دنيا الخيال ودنيا الرؤى في رحلة روحية طويلة تبحث عن القيم النبيلة في دنيا ملأى بالشرو و الآثار.

2- العهد الثاني : عذاب الضمير.

هذا العهد يتوافق في محتواه " عذاب الضمير " مع محتوى إنجيل " لوقا " مخلص البشرية⁽¹⁴⁾، فإذا كان عذاب الضمير وتأنيبه يعين صاحبه على التكفير عن خطايا وسّيئاته إذ يكفي الاعتراف بها، وعدم إنكارها مع معاهدة النفس على عدم الرجوع إليها، فإنَّ إنجيل " لوقا " هو مخلص للبشرية من عذاباتها ومعاناتها، ويفسّل الإنسان من آثامه وفق المفهوم المسيحي.

وعذاب الضمير لا بد أن يسبقه في نظرنا خطايا وذنوب وآثام تكون أسباباً لتلك الحالة الشعورية.

ومن هذا المنظور نجد أن العنوان يحيلنا إلى حقائق ذات صلة وثيقة بالشاعر وغلواء بطلا القصة ، وتتعلق تلك الحقائق بالسقوط في الوحل وصعوبة التخلص منه والرَّحيل عبر دوامة من الكآبة والأحزان والآلام، يورِّق نفسيهما القلق والحيرة والخوف من المجهول القادم، ينشدان التوبة والمغفرة.

- العهد الثالث: التجلي.

يقال: " جلا الأمر وجلأه وجلى عنه: كشفه وأظهره. وجلوت: أي أوضحت وكشفت. وتجلى الشيء: أي تكشَّف واجتلى الشيء: نظر إليه. و جلى ببصره تجلياً إذا رمى به كما ينظر الصقر إلى الصيد: وقال ابن حمزة: التجلي في الصقر أن يغمض عينه ثم يفتحها ليكون أبصر له. فالتجلي: هو النظر"⁽¹⁵⁾ وانطلاقاً من هذه الشروح يمكن أن نقول أن معنى التجلي يكاد ينحصر في الكشف والنظر غير أن الدلالات الإيحائية لهذا العنوان تبتعد عن المعنى المعجمي للكلمة.

فالتجلي في هذا القسم من القصيدة يحيل القارئ إلى حلقة من الحلقات الروحانية والعقائدية لدى الشاعر التي تفوح بشذى الإيمان والمعتقد لدى الشاعر حيث الاشراقات الصافية تشع بداخله.

إنها البشارة بقبول التوبة ، و بالتكفير عن الخطايا وكأنه صوت المسيح – عليه السلام - يبشره بالخطوة التي يحظى بها نتيجة إقدامه على التوبة والتجلي في هذا العهد أشبه ما يكون بإنجيل " يوحنا " إنجيل الفيض والتجلي، والبشارة بالمسيح⁽¹⁶⁾.

4- العهد الرابع: الغفران.

يقال اللهم اغفر لنا مغفرة وغفراناً، وأصل الغفر، التغطية والستر. غفر الله ذنوبه أي سترها و الغفر: الغفران.

وتقول العرب: أصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه: أي أجمل له وأغطى له⁽¹⁷⁾. فالغفران لا يخرج عن التغطية والستر: هو تغطية للأوساخ والدنس وستر لها ، وهو ستر للذنوب والآثام والخطايا والتجاوز عنها.

وهو تخليص للفرد من حياة الشرور والرذائل والمعاصي وإعلان قبول التوبة ، إنه عهد يسوع المسيح الذي خلص الإنسانية قاطبة ، فالغفران هو خلاصه الأناجيل الأربع وذرورها .

هذا العهد يوحى للقارئ وهو يقرأ عنوان (الغفران) بأن بشرى سارة في طريقها إلى الشاعر وغلواء،

و لن تكون إلا قبول توبتهما والتجاوز عن خطاياهم والإحساس بالسعادة والرضا وبعث حياتهما من جديد ، حياة الطهر والعفة والعبادة.

ونتيجة لما تقدم فإن الدارسة السيميائية لعناوين قصيدة " غلواء " تحليل الدارس إلى الكتاب المقدس، وعقيدة الشاعر، وهو ما يجعلنا نطمئن لمحاولتنا في فك شفرات تلك العناوين ودلالاتها، وأن ما ذهبنا إليه لم يكن مجرد افتراض لا أساس له من الصحة بل يستند إلى رافد كبير من الروافد التي طبعت حياة الشاعر وفكره وثقافته وعقيدته ألا وهو الكتاب المقدس.

الهوامش

- 1- دومنيك مونقانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، 2005، ص84.
- 2- محمد فكري الجزار، العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998، ص45.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، مادة(عنا)، ج13، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، ص290، 296.
- 4- المصدر نفسه، مادة(عنن)، ج13، ص107، 101.
- 5- جميل حمداوي، السيميوطيقا و العنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع1، مج28، 1999، ص109.
- 6- انظر: Leo hoek.La marque du titre. Mentan. Editer La Haye. New york. 1981.p28
- 7- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، الشركة المصرية للنشر، ط1، 1996، ص303، 304.
- 8- جميل حمداوي، السيميوطيقا و العنونة، ص107.
- 9- ابن منظور، لسان العرب، ج13، مادة (غلا)، ص369، 370، 368.
- *- من اللواتي عرفهن: مدام روز، ليلي، هاديت، وغيرهما
- 10- جميل جبر، إلياس أبو شبكة شاعر الحب، دار الجبل، لبنان، ط1، 1999، ص49.
- 11- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1995، ص277.
- 12- الإنجيل (العهد الجديد)، جمعية الكتاب المقدس، النشرة الرابعة، 1992، ط1، 1995، ص2.
- 13- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، ج1، ص320.
- 14- الإنجيل، ص2.
- 15- ابن منظور، لسان العرب، ج18، مادة (جلا)، ص163، 164.
- 16- الإنجيل، ص2.
- 17- ابن منظور، لسان العرب، ج6، مادة (غفر)، ص330.